اللغة و الهوية الوطنية على محك الإرث الإستعماري: جرائم تاريخية و تأزم هوياتي

منى طواهرية
المدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية الجزائر
touahriamouna@gmail.com

ملخص

طيلة قرن وثلاثين سنة من الاحتلال الفرنسي للجزائر، حاول المستعمر خلالها بكل السبل طمْس الهوية الجزائرية بممارسة عملية المسخ اللغوي والثقافي الذي ارتكن إلى محوِ الشخصية الجزائرية التي تكوّنت بفعل التراكمات التاريخية. بيد أن الجزائريين، استيقظوا غداة الاستقلال،على هول معركة أخرى، توقّد سعير نقاشها حول موضوع الهوية بكل عناصرها خاصة في شقها اللغوي،و هو الوضع الذي أحيكت تفاصيله و رسمت أبعاده منذ الحقبة الإستعمارية أين اعتمدت سياسة لغوية تعسفية حاربت اللغة العربية و استبدلت باللغة الفرنسية التي اعتبرت غنيمة حرب لابد من تفعيلها في كل الميادين،مما أعلن عن دخول الجزائر مرحلة جديدة في صورتها لكنها متجذرة في أصولها انعكست في أزمة هوية خانقة عجزت عن تشكيل هوية وطنية جزائرية موحدة.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الهوية، السياسة اللغوية، المشاريع الفرنسية، الصراع اللغوي، الجزائر

Abstract

For over a century and thirty years from the French occupation of Algeria, which Colonized by all means tried to obliterate the Algerian identity exercise of the metamorphosis of the linguistic and cultural literacy, which have relied on the Algerian personality formed by the historic accumulations.However, the Algerians, and woke up in the wake of independence, Hall another battle, energetic Sair discussed on the subject of identity with all its elements, especially in the linguistic aspect, is the situation the details of planned and drawn expelled since the colonial era where adopted a policy of arbitrary linguistic fought the Arabic language and replaced the French language, which was considered a war booty to be activated in all fields, announced the entry of Algeria a new stage in its image, but rooted in its assets reflected in the suffocating crisis of identity and failed to form a unified Algerian national identity.

Keywords :language ,identity ,linguistic policy ,French projects, linguistic conflict, Algeria

مقدمة

نظرا للصلة الوثيقة بين اللغة و الهوية، فقد شنّ الإستعمار الفرنسي إبادة حقيقية ضد اللغة العربية و ذلك ضمن الإستراتيجية الإستعمارية الهادفة إلى طمس معالم الهوية الجزائرية بتركيبتها اللغوية،الثقافية،الدينية و حتى الإجتماعية فكانت تعبيرا عن حداثة الإستعمار في صورة الغزو الفكري و القهر الحضاري بدل صورته النمطية التقليدية القائمة على الاستلاب المادي،فاحتلال الجزائر بالنسبة لفرنسا لا يعني احتلال الأرض و استغلال الثروات فحسب بل احتوى في طياته على أهداف خبيثة تنشد بسط الهيمنة التامة على المجتمع الجزائري و ضرب ركائزه،فكانت بذلك السياسة الفرنسية ترمي بالفعل إلى إبادة الهوية الجزائرية العربية المسلمة.

و قد أدركت فرنسا أن السبيل للسيطرة على الشعب الجزائري لا يتم إلا من خلال النفاذ في أعماق نفسيته لتغييرها و إعادة تشكيلها بما يتلاءم مع أغراض السياسة الإستعمارية،و من هنا بدأ التخطيط لسياسة استعمارية تدميرية لمقومات الهوية و في مقدمتها اللغة العربية.

و عليه تأت ورقتنا البحثية هذه للكشف عن جذور السياسة الفرنسية المنتهجة ضد اللغة العربية باعتبارها ركيزة الهوية الجزائرية التي لا تزال محل نقاش يترنح بين فرضية التأسيس لهوية جزائرية من جهة و تأثير ثقافة المستعمر من جهة ثانية،و عليه تتمثل فحوى الإشكالية المراد إثارتها في هذه الورقة على النحو الآتي: **كيف أثرت السياسة اللغوية الإستعمارية على مقومات الهوية الجزائرية في شقها اللغوي؟وهل استطاع الفرد الجزائري تأسيس هوية ذات خصوصيات جزائرية بعيدا عن تأثير ووطأة الثقافة الفرنسية؟أم لا تزال براثن السياسة اللغوية الفرنسية قائمة في جزائر الإستقلال؟**

و من أجل الإجابة على هذه الإشكالية وضعنا مسار البحث في السياق التالي:

أولا: الهوية و اللغة

يوظف مفهوم الهوية في مجال العلوم الإنسانية كمفهوم شمولي على نحو متزايد وفقا لدلالات مجازية بالغة التنوع،و إزاء هذه الإشكالية تبدى ضرورة العمل على شرح ذلك المفهوم و تحديده لإزالة اللبس الذي يكتنفه، و في هذا الشأن قال الفارابي: هوية الشيء هو غيبته وتشخصه وخصوصيته ووجوده المنفرد له، كلُ واحد، وقولنا إنه هو إشارة إلى هويته وخصوصيته ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك" [1]

[1] ناظم عبد الواحد الجاسور، موسوعة علم السياسة، ط1، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2004، ص384.

كما جاء في (دليل أكسفورد للفلسفة):" الهوية بوصفها حالة الكينونة المتطابقة بإحكام أو المتماثلة إلى حد التطابق التام أو التشابه المطلق، والكينونة، هنا تتعلق بالشيء المادي أو بالشخص الإنساني". إن الأمر يتعلق بالتطابق التام بين باطن الشيء وظاهره، أو بتماثل الشكليات الظاهرة لأية كينونة مع جوهرها العميق بلا انفصام أو انشطار مهما كان ضئيلاً[2]

في حين ينظر هنتنغتون لمفهوم الهوية على أنه "لا يستغنى عنه، وفي الوقت نفسه غير واضح، إنه متعدد الأوجه، تعريفه صعب، و يراوغ العديد من طرق القياس العادية"[3]

و قد اعتبر المفكر الفرنسي (أليكس ميكشيللي) Mucchielli Alex الهوية:"منظومة متكاملة من المعطيات المادية والنفسية و المعنوية و الإجتماعية تنطوي على نسق من عمليات التكامل المعرفي، وتتميز بوحدتها التي تتجسد في الروح الداخلية التي تنطوي على خاصية الإحساس بالهوية والشعور بها، فالهوية هي وحدة المشاعر الداخلية، التي تتمثل في وحدة العناصر المادية، والتمايز، و الديمومة،و الجهد المركزي. وهذا يعني أن الهوية هي وحدة من العناصر المادية والنفسية المتكاملة، التي تجعل الشخص يتمايز عمن سواه، ويشعر بوحدته الذاتية "[4]

مثلما يعبّر مفهوم الهوية من جانب آخر على أنها:"الكيفية التي يعرّف الناس بها ذواتهم أو أمتهم،و تتخذ اللغة،الثقافة و الدين أشكالا لها،فهي تنأى بطبيعتها عن الأحادية،و تنحو منحى تعدديا تكامليا إذا أحسن تدبيرها،و منحى صداميا إذا أهملت و أسيء فهمها،تستطيع أن تكون عامل توحيد و تنمية،كما يمكن أن تتحول إلى عامل تفكيك و تمزيق النسيج الإجتماعي الذي تؤسسه عادة اللغة الموحدة"[5]

أما اللغة فإنها بحسب تعريف معجم لاروس الفرنسي،عبارة عن" نظام مدلولات شفاهية خاصة بكل مجموعة من الأشخاص،تستعملها للتعبير أو الإتصال بعضها مع بعض"

---

[2]تد هوند رتش, دليل أكسفورد للفلسفة، ج2، من حرف (ظ إلى ي)، ترجمة: نجيب الحصادي، ط1، المكتب الوطني للبحث والتطوير، دار الكتب الوطنية، بنغازي،ليبيا، 2005، ص995.

[3]صموئيل ب. هنتنغتون، من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، ترجمة: حسام الدين خضور، ط1، دار الرأي للنشر، دمشق، 2005، ص37.

[4]أليكس ميكشيللي،الهوية،ترجمة:على وطفة،الطبعة العربية الأولى، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق،1993،ص11.

[5]كاهنة شاطري ،أثر أزمة الهوية الثقافية على تكريس إشكالية الإنتماء و المواطنة في الجزائر –في ضوء تداعيت العولمة–مجلة الدراسات السياسية و العلاقات الدولية،العدد10،سبتمبر 2017،ص 67.

فاللغة إذن لا يمكن أن تكون مجرد وسيلة اتصال محايدة ،بل إنه يصدق عنها تعليق (كريستين فريشات)Fréchette Christine القائلة"إن اللغة حاملة لهوية،قيم،تاريخ، و معنى،إنها تحقق التلاحم الإجتماعي و تدعم تنامي الإحساس بروح الإنتماء إلى المجموعة"[6]

إن هذه المضامين المتأصلة في أعماق النفس البشرية التي تعبر عنها اللغة هي التي تجعل هذه الأخيرة(اللغة) الناطق الرسمي بلسان الهوية و هو ما يعكس طبيعة العلاقة بين الهوية و اللغة التي أضحت من القضايا التي استحوذت على النقاشات العلمية و اللغوية و السياسية و ذلك بحكم الإشكالات التي تطرحها و ما يمكن أن تثيره،فمما لاشك فيه أن اللغة مقوم رئيسي في تشكيل الهوية،إذ لا يمكن الحديث عن اللغة دون الحديث عن الهوية لأن اللغة تحمل هموم متكلميها و تنظم سلوكهم و تفاعلهم و توحد انتماءهم.[7]

و بهذا المعنى فإن اللغة تنسحب إلى كونها عنوان الوجود والهوية، باعتبارها المستودع الأمين الذي تختزن به مقومات الانتماء، وذاكرة المستقبل، ولا تزول إلا بزوال الأمة، فهي مكنونها ومصدر تحديد الملامح الأساسية المعبرة عن طبيعتها، ومرتبطة بالتراث والماضي والحاضر.[8]

وعلى ضوء ما سبق نقّر أن بقاء الأمم و تقدمها وسيرها في ركب الدول المتحضرة رهين بتمسكها برصيدها اللغوي واعتزازها به،فحياة الأمم تقوم بلغاتها أما الموت بالنسبة لها فليس إلا الحرمان من اللغة الخاصة بها.ونتيجة ذلك،غالبا ما كانت اللغة مصدرا من مصادر الصراع من خلال تكريس الهيمنة اللغوية ومحاربة اللغات الأم لباقي الأمم والشعوب ،بل امتد هذا الصراع والتفتت اللغوي الفسيفسائي إلى اللغة الواحدة بسبب فقدانها عناصر وجينات التطور، أو لكونها تعيش صراعا داخليا مريرا، مما يؤدي إلى تحللها وضعفها وذبولها فيجعلها تعيش على إيقاع فائض القيمة اللغوية من منظور تاريخي.وهذا الأمر يسوغ إلى جانب عوامل أخرى، حقيقة الصراع والهيمنة والتجاذب و التقاطب

[6] خير الدين شمامة ،إشكالية اللغة العربية في الجزائر بين مخلفات الإستعمار و ضغط العولمة، في رمزي منير بعلبكي و آخرون(محرر)،اللغة و الهوية في الوطن العربي:إشكاليات تاريخية و ثقافية و سياسية،قطر:المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات،الطبعة الأولى،2013ص120.

[7] نور الدين لبصير،تجاذبات اللغة و الهوية بين الأصالة و الإغتراب،جسور المعرفة،المجلد1،العدد4،ص ص 36،37.

[8] جدل العلاقة بين اللغة والهوية،نشر بتاريخ 06 فبراير2009 على الساعة 10:00(تاريخ الإطلاع2017/09/09 على الساعة16:30)،متوفر على:http://www.alghad.com/articles/693783

اللغوي بين اللغات الوطنية ولغات المستعمر، مما يفضي إلى تنامي تيار المقاومة والممانعة اللغوية للآخر.[9]

و عليه يمكن القول أن حقيقة العلاقة بين الهوية و اللغة قد وظفتها الدول المستعمرة ضد مستعمراتها بهدف تفكيك مجتمعاتها و دحض هوياتها و ذوبانها في هوية البلدان المستعمرة و هو ما عمد إليه الإستعمار الفرنسي بالجزائر، الذي خلف آثارا كبيرة على هوية الشعب الجزائري بحيث أفقدته هويته لغته العربية و عمل على طمسها بشتى ما أوتي من وسائل و ما اتخذه من سياسات و استراتيجيات و التي تبدو ظاهرة للعيان في ظل غياب سياسة لغوية تعبر عن إرادة وطنية جادة لإعادة اللغة العربية إلى مكانتها الأصلية باعتبارها جوهر الهوية الجزائرية.

ثانيا:محاربة المستعمر للغة العربية

لأن المستعمر الفرنسي كان يعلم أن اللغة العربية تمثل جوهر الهوية الجزائرية،فقد توخت فرنسا من خلال سياستها اللغوية المحكمة سلب العربية بعض وظائفها التاريخية و تقويتها للغة الفرنسية كلغة دخيلة أريد لها أن تكون لغة إدارة الإحتلال و وسيلة السيطرة و النفوذ الإستعماري، و هو ما يعكس حقيقة أن الإستعمار الفرنسي للجزائر لم يكن استعمارا بقدر ما هدف إلى محو و دحض كل ماله علاقة بالهوية الجزائرية العربية المسلمة.

و من ثمة لا يمكننا فهم حقيقة الوضع الراهن المتسم بتأزم هوياتي دون العودة إلى الجذور التاريخية التي هيأت الأرضية و نشرت البذور و رعت بكل إخلاص صراعا لغويا تجسد في أزمة هوية لا نزال نحصد آثاره إلى يومنا هذا سواء في مدرستنا أو في ثقافتنا أو في مجتمعنا بصفة عامة.

فقد هدف الاستعمار الفرنسي إلى استبدال شعب بشعب ،وثقافة بثقافة، ومن هنا كانت الحملة الفرنسية على الجزائر حملة شرسة وهمجية بكل المقاييس ؛حيث عمد إلى تفكيك المجتمع الجزائري من كل النواحي خاصة على المستوى الثقافي من خلال تدمير البنية التحتية التي كانت تضمن التربية والتعليم للجزائريين، والمتمثلة أصلا في الزوايا والكتاتيب والمدارس التي كانت تحضر الطلبة لمواصلة الدراسة في جوامع الأزهر بمصر أو الزيتونة بتونس أو القرويين بالمغرب .

فالآثار الكارثية للإستعمار الفرنسي على النظام التربوي التقليدي تظهر جلية من خلال تدمير البنيات التربوية الموجودة وتهميش اللغة العربية الفصحى، وخنق الإنتاج الثقافي الذي كان موجودا في المناطق

[9] عبد المجيد علوي اسماعيلي، اللغة والهوية : أية علاقة؟،نشر بتاريخ 2014/09/20 على الساعة 4:28(تاريخ الإطلاع 2017/09/08 على الساعة22:00)متوفر على: http://www.dades-infos.com/?p=16971

الحضرية، وكذا من خلال محاولة محو الذاكرة عن طريق تشتيت الأرشيف التقليدي والمخطوطات العربية والإسلامية.[10]

و لم يكتف المستعمر بذلك إنما شجّع المدارس والثقافة و اللغة الفرنسية بشكل منقطع النظير، محاولا بذلك فرنسة الجزائر وتبرير إلحاقها القصري بالإمبراطورية الفرنسية بحيث تضمن المشروع الفرنسي في الجزائر شقين أساسيين يتمثل الأول في تدمير كل بنيات المجتمع الأصلي التقليدية، بغرض تحويل الجزائر إلى ملك شاغر سياسيا واقتصاديا و ديموغرافيا وثقافيا وحتى دينيا، أما الشق الثاني فيتمثل في إعادة تأسيس المقاطعة الفرنسية المسماة بالجزائر، على صورة المقاطعات الفرنسية الأخرى، من خلال تثبيت التنظيم الإداري الفرنسي وتشجيع الاقتصاد الأوروبي وترقية الثقافة الفرنسية ورعاية التنصير.

و قد احتوت السياسة اللغوية لفرنسا بالجزائر على جملة من الأهداف و تبنت ترسانة من القوانين والآليات لتنفيذها،يمكن إيضاح ذلك في ضوء النقاط التالية:

1-أهداف فرنسا اللغوية في الجزائر

رغم مناورات فرنسا و إتقانها لعبة التخفي؛ إلا أن أهدافها الحقيقية أظهرها التاريخ عبر ما خلفته على الساحة اللغوية الجزائرية، ويمكن إيجاز الأهداف اللغوية فيما يأتي:[11]

-جعل الجزائر بوابة لإفريقيا يمتد عبرها الوجود اللغوي والثقافي الفرنسيين إلى بقية بلدان إفريقيا،و لا يكون ذلك إلا بتحويل كل الجزائريين إلى رعايا فرنسيين مرتبطين عاطفيا و لغويا و فكريا بفرنسا.

-إحلال اللغة الفرنسية مكان اللغة العربية، يقول "دي روفيقو" سنة1843م معربا عن نية التطويع اللغوي: (إني أنظر إلى نشر التعليم و تدريس لغتنا بحسبانها الأداة الناجعة المثلى لبسط نفوذنا في هذا البلد)...(و المعجزة الحقيقية الواجب القيام بها تكمن في إحلال الفرنسية محل العربية تدريجيا.)

-جعل التمدرس انتقائيا يسمح بظهور ثلاثة أنواع من المتمدرسين؛ النوع الأول هم أطفال الفلاحين الفقراء و أبناء الزاحفين نحو المدن بحثا عن العمل، وهؤلاء يجب إقصاؤهم كلية عن التعليم؛ أما النوع الثاني فهم أبناء الطبقات الوسطى من البرجوازية الحضرية والريفية التي سيتم إدماجها لتصبح قوة عاملة ضرورية لرأس المال المحلي و بخاصة أولئك الذين جاؤوا من بلد المستعمر، فيسمح لهم بالتعليم؛ و أخيرا أطفال الطبقات الحاكمة البرجوازية سواء الأوربية أم الجزائرية أم الريفية أم الحضرية، التجارية أم

[10] نصيرة زيتوني،واقع اللغة العربية في الجزائر،جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)،المجلد27،العدد 10،2013،ص 2159.

[11] طيبي غماري ،خمسون سنة من التعدد اللغوي في المدرسة الجزائرية،صراع هويات ينتهي إلى الأمية". الموافق للبحوث و الدراسات في المجتمع و التاريخ ،العدد7،ديسمبر 2012،ص49.

الصناعية، أم حتى البرجوازية الصغيرة من أعيان الإدارة والأعمال الحرة الذين سيسمح لهم بمزاولة الطورين الثانوي والجامعي لتكوين نخبة مفرنسة منهم، وهو ما ظهر بالفعل على أرض الواقع أيام الاحتلال .

-جعل الشعب أُميا في لغته و ثقافته، بل أمي حتى في الفرنسية إلا ما تحتاج إليه فرنسا منه؛و جعل التعليم موجها مَسيَّسا لا يجب عليه أن يخرج عن حدود الوظائف التي حددتها له.

-دفع كل الجزائريين إلى الركون إلى الشفوية، حتى غدت فعلا هي وسيلة التعبير الغالبة، وشكلا من أشكال المقاومة فتراجعت الفصحى إلى خطوطها الخلفية المتمثلة في العربية الدارجة.

-الاستعانة باللغة الأمازيغية على اللغة العربية: النبش في التراث اللغوي الأمازيغي السحيق. و قد ثبت تاريخيا أن لم يَسبق أحد الفرنسيين إليه؛ لأنه يعزز النفوذ اللغوي الفرنسي .

-التفكير في تنظيم يجمع متكلمي اللغة الفرنسية: و لقد اختارت الإدارة الفرنسية مصطلح الفرانكفونية(La francophonie) بالفرنسية.

2-تنفيذ فرنسا مخططها اللغوي

بدأت فرنسا في فرض اللغة الفرنسية على الجزائريين بالحديد و النار و عنف جم، قلما شهد تاريخ البشرية مثالا له،و من ذلك:[12]

أ.استصدار القوانين و المراسيم التي تدعم استعمال اللغة الفرنسية: ومن أهم قرارات وتعليمات فرض التعامل بالفرنسية و إقصاء العربية ما يأتي:

-تعليمة موجهة إلى حاكم الجزائر غداة الاحتلال جاء فيها: (إن إيالة الجزائر لن تصبح حقيقة مملكة فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا هنا لغة قومية، و العمل الجبار الذي يجب إنجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي بالتدريج إلى أن تقوم مقام اللغة العربية)

-في عام 1904م صدر قانون يحرم على الجزائريين أن يفتحوا مدرسة عربية أو كتابا لتعلم القرآن ما لم يحصلوا على ترخيص.

-ثم جاء قرار " شودان" Chaudain وزير داخلية فرنسا في عام 1938م ليؤكد على تطبيق القانون السابق الخاص بمنع فتح مدرسة لتعليم العربية.

[12] فريدة بلفراق ،إشكالية التعدد اللغوي في الوطن العربي و انعكاساته على اللغة العربية.المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية،الندوة رقم 53 اللغة العربية بين التعدد اللغوي و معطيات العصر،7-10 مايو 2013،ص 5.

ب–محاصـرة و غلـق مؤسسـات تعلـيم العربيـة و انطـلاق مرحلـة فـرض الفرنسـة اللغويـة في عـدة قطاعات، منها:

–فرنسة الإدارة من خلال إصدار قرار 1848.

–فرنسـة التعلـيم: يقـول المـؤرخ "مـوريس فاهـل": (لقـد شـرعنا بادي ذي بـدء في هـدم كـل المسـايد تقريبـا "وهـي المـدارس الابتدائيـة"، و الـزوايا (الريفيـة)، والمـدارس (الثانويـة)، و بعـض المـدارس الإسـلامية الأخـرى الموجودة قبل 1830).

–فرنسـة المظـاهر الاجتماعيـة: عملـت فرنسـا علـى هـدم العـالم الاجتمـاعي و اللغـوي الجزائـري، و بنـاء محـيط اجتمـاعي و ثقـافي ولغـوي فرنسـي يبتلـع كـل آثار اللغـة العربيـة مـن المحـيط الاجتمـاعي،و يظهـر هـذا في تغيـير أسمـاء الشـوارع والأبـواب و المؤسسـات... الخ، وإعطائهـا أسمـاء–لامعـة– رومانيـة و أوربيـة،و دينيـة مسـيحية و تاريخيـة.. و تغيـير حـتى أسمـاء الأشـخاص عمـدا مـع النقـل المشـوه و المسـوخ لهـذه الأسماء من العربية إلى الفرنسية، كتقويض للقواعد الأسرية و القبلية.

وأخطـر جريمـة اجتماعيـة نفـذتها إدارة الإحـتلال – بطـرق في منتهـى الالتـواء و الخبـث لتحقيـق الفرنسـة– كانت بتكريس الانبهار بالمدنية الفرنسية عند فئات اجتماعية معينة، منها:[13]

– فرنسة أطفال الأعيان بنقلهم إلى فرنسا.

–فرنسة شخصيات جزائرية مرموقة بإجبارهم على زيارة فرنسا.

–فرنسـة الأطفـال المعـوزين داخـل الجزائـر: كـالأولاد الصـغار مـن اليتـامى و المشـردين وأبنـاء الفقـراء،و لتنصيرهم تم جمعهم في ملاجئ هيئت لهذا الغرض .

–فرنسـة المهـاجرين إلى فرنسـا: فـبحكم دراسـتهم للغـة الفرنسـية و احتكـاكهم بثقافتهـا، فقـد أسـهموا في ظهور هذه النخبة المفرنسة من العمال و غيرهم.

–إطـلاق العنـان للتبشـير: فنشـطت في مجـال نشـر اللغـة الفرنسـية نشـاطا لا مثيـل لـه، علـى الـرغم مـن أن المبشـرين كـانوا يسـتعملون لغـة الأهـالي في معظـم المسـتعمرات بـل كـان يُـترجم الإنجيـل حـتى إلى اللغـات المحليـة؛ لكـن علـى الـرغم مـن ذلـك يقـول "كـالفي":(طيلـة قرابـة قـرن، ارتقـت الثقافـة و اللغـة الفرنسـيتان بالخارج بفضل تلك القنوات الدينية).

[13] طيبي غماري ،مرجع سابق،ص53.

-تمويل حملة نشر الفرنسية: قد لا يهم كثير ا البحث في مصادر تمويل السياسة اللغوية الفرنسية؛ لأن الخزينة العامة للجزائر و الأوقاف التي استولى عليها الاستعمار كفيلة بذلك، بل تعويض خسارة كل حملة عسكرية لفرنسا.

و قد كان لهذه السياسة انعكاسات على المجتمع الجزائري،تظهر جليا في النقاط التالية: [14]

-ظهور اللغة الفرنسية على الساحة اللغوية الجزائرية لم يكن ظهورا بريئا.

-العامية شكلت الخطوط الخلفية للفصحى؛ لأن العربية الفصحى خنقت في مجالاتها الحيوية؛ أما الأمازيغية فحاولت فرنسا جعلها شوكة في خاصرة الكيان اللغوي الجزائري.

-السياسة اللغوية التي رسمتها فرنسا للجزائر كان هدفها إحداث تغيير اجتماعي كبير عن طريق الفرنسة.

-لقد كان لفرنسا سياسة لغوية خاصة بالجزائر، رتبت فيها الأولوية لنشر الفرنسية على حساب اللغة.

-تكوين فرنسا لنخبة جزائرية فرنسية اللسان، مثقفة ثقافة غربية، منبهرة بمدنيتها، حظيت بمناصب عمل، فأبدت الإخلاص للمستعمر و تنكرت لأمتها و لغتها و طالبت بتعويضها بالفرنسية. وهذا أدخل جماعة النخبة في صراع مع الذات ومع المحافظين الوطنيين.

-العربية الفصحى و العامية و الأمازيغية كانت تنعم بالتعايش والاستقرار منذ قرون، إلا أن السياسة اللغوية الفرنسية حاولت إدخالها في علاقة قوة وصراع؛ ليخلو الجو للغتها فتُسود وسط الفرقة بوصفها حلا محايدا يرتضيه الجميع.

-السياسة اللغوية الفرنسية في الجزائر كانت سياسة تقويضية لكل البنى اللغوية والاجتماعية المتعايشة.[15]

كل هذا يؤكد أن السياسة الإستعمارية عملت على طمس و تقويض الهوية الوطنية و القضاء على الذاتية الجزائرية و محو آثار الشخصية الجزائرية من خلال محاربة اللغة العربية بكل قوة و همجية عبر إصدار القوانين و هدم البنية التعليمية للمدارس العربية ،والتي هيأت الأرضية للغة الفرنسية التي

[14] بلال دربال، السياسات اللغوية في البلاد المستعمرة:الاستعمار الفرنسي للجزائر نموذجا، الدراسات اللغوية و الأدبية،العدد الأول،يونيو2015، ص36.

[15] بلال دربال،المرجع السابق، ص37.

أصبحت اللغة الرسمية، كل هذا أورث للجزائر بعد الاستقلال نخبا مفرنسة مخلصة للغة الفرنسية التي اعتبرتها غنيمة حرب و ظلت تدافع عنها كلغة تطور على حساب اللغة العربية التي وصفت باللغة العاجزة ،أمام هذا الوضع ظهرت جمعية العلماء المسلمين التي يرجع لها الفضل في تكوين النخب العربية التي حملت على عاتقها مسؤولية دفع عملية التعليم العربي في الجزائر و الدفاع عن اللغة العربية كلغة رسمية معبرة عن الهوية الجزائرية ،و هذا ما أوجد صراعا بين هذه الأخيرة و النخب المفرنسة الذي بدأت بوادره بالظهور علنا في مختلف المناسبات و على كل الأصعدة معلنة عن دخول المجتمع الجزائري مرحلة أصبح فيها الجزائريين دون لغة واضحة مما افقدهم هويتهم اللغوية في خضم صراع لم تعرف نهايته بعد.

ثالثا: الهوية الجزائرية و تحدي الفرنسية

انطلاقا من مرحلة الاستقلال ،أصبح الواقع اللغوي في الجزائر معقدا و مركبا لارتباطه بإرث لغوي استعماري لا تزال آثاره قائمة ،فإلى جانب اللغة العربية التي لا يزال يشار إليها في الدساتير على أنها اللغة الرسمية إلا أن اللغة الفرنسية التي استقر وضعها في التعليم و الإدارات تعد أشد اللغات منافسة لها مما خلق صراعا لغويا محتدما على الساحة اللغوية الجزائرية.

و لهذا فإن موضوع اللغة في الجزائر موضوع حساس ولا يخلو نقاشه من المطبات والأشواك لارتباطه بصراعات تمت صناعتها صنعا ومن إذكاء نار الفتنة فيها عبر عقود، صراعات ناتجة عن تركة استعمارية وسياسات متعاقبة فاشلة وأياد داخلية وخارجية عابثة جعلت الصراع يبدو في ظاهره على أنه صراع بين العربية و الأمازيغية بينما في حقيقته طمس للهوية الجزائرية بشقيها العربي و الأمازيغي لتنتصر وتتسيد الفرنسية،لأن التاريخ يشهد على تعايش هاتين اللغتين بل وتكاملهما.

ففي الوقت الذي كثر فيه الحديث عن سياسات التعريب في الجزائر لا يزال الصراع قائما بين دعاة اللغة العربية و دعاة اللغة الفرنسية رغم المحاولات الرسمية للقضاء على هذا الصراع التي لا تزال حبيسة الأدراج[16]،و التي تعود في أسبابها إلى جذور تاريخية عديدة ربما من أهمها أن جزائر ما بعد الاستقلال لم ترث المنظومة الإدارية الفرنسية فحسب، بل ورثت الطاقم الإداري الفرنسي المشكل في معظمه من جزائريين ارتبطوا ارتباطا وثيقا بالوجود الفرنسي وربما لا يزالوا يحنون له إلى يومنا، هذا الطاقم الذي سيطر على دواليب الإدارة الجزائرية وكان له الدور الرئيس في عرقلة وإفشال وتشويه محاولات التعريب

[16] فارس لونيس ،سياسات الهوية لدى الأحزاب السياسية في الجزائر1989-2012.رسالة ماجستير في العلوم السياسية،كلية الحقوق و العلوم السياسية،قسم العلوم السياسية و العلاقات الدولية،جامعة الدكتور الطاهر مولاي سعيدة ،2012-2013،ص ص103-105.

إلى أن انتهى الأمر بسيطرة هذا الطابور على مقدرات البلاد وسلطة القرار فيها؛ إذ رغم خروج الإستعمار من الحقول إلا أنه لا يزال جاثما على العقول.[17]

فالظاهر حاليا في الجزائر تفشي ظاهرة التقليد للغرب و الانتشار المتنامي للمتحدثين و مستخدمي اللغة الفرنسية على نحو أوجد مشكلة عدم إتقان أي لغة و هذا ما يمكن ملاحظته حتى لدى الشباب الجزائري الجامعي،الذي وقع في فخ الإنفصام و الضياع اللغوي،فلا هو يتقن اللغة العربية حق الإتقان،و لا حتى اللغات الأجنبية[18].

إننا لا ننكر أن عملية التعريب في الجزائر كان فيها كثير من الارتجال والأخطاء وتم تسييسها واستغلالها من بعض الأطراف ، ولكن الأكيد أيضا أن اغلب من كانوا في الدوائر الحساسة للسلطة لم يكونوا يؤمنون بالمشروع، بل كانوا معادين له أصلا وعملوا على إبقاء الجزائر تابعة لفرنسا علميا وثقافيا. فهذه التبعية لوحدها كفيلة برهن باقي الجزائر، وما نشهده اليوم إلا دليل على نجاح هذه السياسة.[19]

إذ لم تستطع سلطات الإستقلال على الرغم من حماستها الوطنية شطب لغة المستعمر، و تمكنت هذه الأخيرة تحت دثار الإنفتاح الحضاري و ضروريات التنمية العلمية و التقنية أن تحجز لنفسها مكانا آمنا في النظام التعليمي الجزائري،فهل استطاعت هذه اللغة قهر شهوتها و الإكتفاء بوظيفة التفتح؟أم كانت لها آثار انعكست على الهوية الجزائرية؟

إن طريقة إدماج اللغة الفرنسية في التعليم بعد الإستقلال و الدعم السياسي الذي لاقته من طرف بعض الجهات"النخب المفرنسة" جعلها تحتل موقعا حضاريا بحيث لم تعد في نظر الكثيرين إرثا استعماريا لابد من التخلص منه بل أضحت تعد لغة علم لابد من تفعيلها و تعزيز مكانتها،و قد ساهم هذا الوضع في التأثير على الهوية الجزائرية من خلال:

1-إنهاء إحتكار اللغة العربية للثقافة الجزائرية و اشتراك الفرنسية معها.

2-بروز توترات ثقافية حادة من جراء عملية الإخصاب غير الطبيعية للثقافة التقليدية بالثقافة الفرنسية،و في مقدمتها إشكالية الأصالة و المعاصرة.

---

[17] نور الصباح عنكوش،علاقة التعريب بالتنمية الإدارية في الجزائر بعد الإستقلال،أطروحة دكتوراه العلوم في العلوم السياسية،كلية الحقوق،قسم العلوم السياسية،جامعة الحاج لخضر باتنة،2009-2010،ص54.

[18] كاهنة شاطري ،مرجع سابق،ص74.

[19] جمال ضو ،"التشوه و الشذوذ اللغوي في الجزائر"،نشر بتاريخ 2012/10/06(تاريخ الاطلاع 2016/12/17،على الساعة23:00) متوفر على:http://www.lequotidienalgerie.org

3-ظهور نخب تعتبر الفرنسية لغتهم الأم،لغة البيت و لغة المدرسة.[20]

فرغم إستقلال الجزائر إلا أن محنة اللغة الفرنسية لم تنته بل تفاقمت أكثر بعد فشل الحكومات المتعاقبة في إعادة اللغة العربية إلى مكانتها السابقة،و تعثر مشاريع التعريب في الإدارة و التعليم و الإقتصاد، فكانت أولى تدهور الهوية الجزائرية الذي تسببت فيه اللغة الفرنسية تراجع مكانة اللغة العربية في الحياة العامة و تلاشي مفهوم الإنتماء الثقافي و الحضاري لدى الفئة الفرانكفونية و أضحت آثار اللغة الفرنسية في الهوية الجزائرية واضحة سواء في أبعادها الدينية أو الثقافية أو الحضارية مجسدة في ذلك **مقولة دو غول**:" إذا كنا خرجنا عسكريا من الجزائر فإننا ثقافيا لا نزال و سنبقى؛حيث صرح في قضية الخيار بين فصل الصحراء الجزائرية و تكون تابعة لفرنسا و بين بقاء الفرنسية ،فقال:"لو يتعيّن عليّ أن أختار بين بترول الصحراء،وبقاء اللغة الفرنسية في الجزائر لاخترت بقاء اللّغة الفرنسية.[21]

إن هذه المقولة إنما تعكس إيمان دو غول بأهمية اللغة و يقينه بدورها في تحقيق تماسك النسيج المجتمعي لأي بلد من تفككه و هو الأمر الذي اتضحت معالمه في المجتمع الجزائري غداة الإستقلال و إلى يومنا هذا و المجسّد في صراع لغوي يعبر في حقيقته عن تركة استعمارية كبيرة استطاعت تكوين نخب مفرنسة داعية و مدافعة عن اللغة الفرنسية من منظور أنها لغة التطور، و بهذا فهي تقوم بشكل أو بآخر بتجسيد مشاريع فرنسا على نحو غير مباشر يظهر جليا من خلال الاستخدام الكبير و الواسع للغة الفرنسية في المجتمع الجزائري أمام تراجع للغة العربية ،و الذي من شأنه أن يضرب عمق الجزائر ذلك أن اللغة هي مرتكز الهوية و رمز العروبة و الإسلام ،و هو الوضع الذي ترفضه النخب المعربة و تسعى إلى تطبيق سياسة التعريب للمحافظة على اللغة العربية و العمل على عودتها إلى مكانتها المرموقة، و قد أوجد هذا الصراع اللغوي شرخا كبيرا في المجتمع الجزائري الذي أصبح يعاني من أزمة لغوية حادة ،فرغم أن الدساتير تنص على رسمية اللغة العربية و كونها اللغة الوطنية و ذلك كمحاولة رسمية للقضاء على هذا الصراع إلا أنها تظل جهودا قابعة على مستوى أدراج السلطة ،و ما دل على ذلك توقيف عملية التعريب رغم صدور قانون في ذلك،ما يؤكد أن المسالة اللغوية تطرح صراعا

[20] محمد جبرون،جدل الهوية و لغت التعليم في المغرب الأقصى،في رمزي منير بعلبكي و آخرون(محرر)،اللغة و الهوية في الوطن العربي:إشكاليات تاريخية و ثقافية و سياسية، الطبعة الأولى،المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، قطر،2013 ،ص114.

[21] صالح بلعيد،ترسيم الأمازيغية- حل أم عقد؟.التخطيط و السياسة اللغوية، السنة الأولى، العدد 1، أكتوبر 2015.ص 32.

ينسحب إلى صراع على مستوى أجنحة السلطة بين نخب تعمل على بقاء الوضع القائم و أخرى تدعو إلى إعادة اللغة العربية إلى مكانتها الأصلية بتنفيذ ما نصت عليه الدساتير، و بين هذا و ذاك يظل المجتمع الجزائري دون لغة واضحة و هو ما عكس تأزم هوياتي باعتبار اللغة جوهر الهوية و المعبر عن هوية أيد أمة.

خاتمة

إن التطور الذي شهدته الهوية الجزائرية في العقود الأخيرة،و الإنعكاسات المختلفة التي صاحبت استقرار الفرنسية في الكيان الجزائري لم تصفح بعد عن صورة واضحة و تامة للهوية المستقبلية للجزائر،غير أنها كشفت عن انشقاق مزمن في الهوية العربية- الإسلامية و تصدع داخلي خطير مسّ مفهوم الإسلام، و حقيقة الإنتساب إلى العروبة،و مفهوم الوحدة الثقافية، و لعل أبرز أسباب هذا الانشقاق و التوترات العالقة به ترجع إلى تعطيل الدينامية الذاتية للهوية و استبدالها بدينامية أخرى جل عواملها تقع خارج البنية.

و صفوة القول أن التهاون و التساهل في المراقبة الوظيفية للغة الأجنبية و الإذن لها بتجاوز الوظائف الرئيسية التي من أجلها سمح لها بالوجود يؤدي إلى اضطراب هوياتي خطير يؤثر في تماسك الجماعة و انسجامها الثقافي. وفي ضوء ذلك، توصلت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج نوردها في النقاط التالية:

-استحالة فصل اللغة عن هوية أي دولة.

-لعبت التركة الاستعمارية دورا كبيرا في توريث الجزائر لغة المستعمر التي أثرت على الهوية العربية الجزائرية.

-خطورة النتائج المترتبة على عدم استعمال اللغة الأم و في مقدمتها الهوية الهشة.

-إن الوضع اللغوي القائم ولد شرخا ثقافيا و اجتماعيا بين جيل مفرنس و آخر معرب مما انعكس على المردود العلمي و الثقافي لأبناء الجزائر و أوقع الجزائر في أزمة لغوية تمتد إلى أزمة هوية مما نجم عنه تعطيلا للتنمية السياسية و الإدارية جراء تضارب مناهج التسيير الإداري .

-إن اكتساب اللغات الأجنبية أصبح واقعا لا مفر منه في ظل التطورات التي يشهدها العالم ،إلا أنه لابد من التأكيد على ضرورة الحفاظ على الموروث اللغوي باعتباره رمز الهوية و ركيزة أساسية للتعبير عن ذواتنا.

بناءا على نتائج هذه الورقة البحثية،يمكن تقديم جملة من المقترحات التي نراها جديرة بالدراسة و الإهتمام لدى الباحثين و الدارسين أهمها:

1-ضرورة التذكر أن ثورة التحرير الجزائرية لم تنتصر بفضل النضال المسلح فحسب،بل أيضا بفضل العوامل المعنوية المحفزة على ذلك النضال و في مقدمتها استعادة الهوية الجزائرية المختلفة عن هوية المستعمر لغة و دينا.

2-التأكيد على أن اللغة العربية لغة علم و تطور تعكس هوية الشعب الجزائري الأصيل.

3-ضرورة مواصلة الدولة جهودها للنهوض باللغة العربية للتخلص من مخلفات الإستعمار و محاولات طمس الهوية الجزائرية.

قائمة المراجع

الكتب

1- أليكس ميكشيللي،الهوية،ترجمة:على وطفة،الطبعة العربية الأولى، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق،1993.

2- امحمد جبرون،جدل الهوية و لغت التعليم في المغرب الأقصى،في رمزي منير بعلبكي و آخرون(محرر)،اللغة و الهوية في الوطن العربي:إشكاليات تاريخية و ثقافية و سياسية، الطبعة الأولى، المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، قطر،2013.

3- تد هوند رتش, دليل أكسفورد للفلسفة، ج2، من حرف (ظ إلى ي)، ترجمة: نجيب الحصادي، ط1، المكتب الوطني للبحث والتطوير، دار الكتب الوطنية، بنغازي،ليبيا، 2005.

4- خير الدين شمامة ،إشكالية اللغة العربية في الجزائر بين مخلفات الإستعمار و ضغط العولمة، في رمزي منير بعلبكي و آخرون(محرر)،اللغة و الهوية في الوطن العربي:إشكاليات تاريخية و ثقافية و سياسية، الطبعة الأولى، المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات، قطر،2013.

5- صموئيل ب. هنتنغتون، من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، ترجمة: حسام الدين خضور، ط1، دار الرأي للنشر، دمشق، 2005.

6- ناظم عبد الواحد الجاسور، موسوعة علم السياسة، ط1، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، 2004.

أ- الرسائل و الأطروحات

1- فارس لونيس ،سياسات الهوية لدى الأحزاب السياسية في الجزائر1989-2012.رسالة ماجستير في العلوم السياسية،كلية الحقوق و العلوم السياسية،قسم العلوم السياسية و العلاقات الدولية،جامعة الدكتور الطاهر مولاي سعيدة ،2012-2013.

2- نور الصباح عنكوش،علاقة التعريب بالتنمية الإدارية في الجزائر بعد الإستقلال،أطروحة دكتوراه العلوم في العلوم السياسية،كلية الحقوق،قسم العلوم السياسية،جامعة الحاج لخضر باتنة،2009-2010.

ج-الأبحاث و المقالات

1-بلال دربال، السياسات اللغوية في البلاد المستعمرة:الاستعمار الفرنسي للجزائر نموذجا، الدراسات اللغوية و الأدبية،العدد الأول،يونيو2015.

2-صالح بلعيد،ترسيم الأمازيغية- حل أم عقد؟.التخطيط و السياسة اللغوية، السنة الأولى، العدد 1، أكتوبر 2015.

3-طيبي غماري ،خمسون سنة من التعدد اللغوي في المدرسة الجزائرية،صراع هويات ينتهي إلى الأمية". الموافق للبحوث و الدراسات في المجتمع و التاريخ ،العدد7،ديسمبر 2012.

4-فريدة بلفراق ،إشكالية التعدد اللغوي في الوطن العربي و انعكاساته على اللغة العربية.المؤتمر الدولي الثاني للغة العربية،الندوة رقم 53 اللغة العربية بين التعدد اللغوي و معطيات العصر،7-10 مايو 2013.

5-كاهنة شاطري ،أثر أزمة الهوية الثقافية على تكريس إشكالية الإنتماء و المواطنة في الجزائر –في ضوء تداعيت العولمة-مجلة الدراسات السياسية و العلاقات الدولية،العدد10،سبتمبر 2017.

6-نصيرة زيتوني،واقع اللغة العربية في الجزائر،جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)،المجلد27،العدد 10،2013.

7-نور الدين لبصير،تجاذبات اللغة و الهوية بين الأصالة و الإغتراب،جسور المعرفة،المجلد1،العدد4.

د- **المواقع الإلكترونية**

1- جدل العلاقة بين اللغة والهوية،نشر بتاريخ 06 فبراير2009 على الساعة 10:00(تاريخ الإطلاع2017/09/09 على الساعة16:30)،متوفر على:http://www.alghad.com/articles/693783

2- عبد المجيد علوي اسماعيلي، اللغة والهوية : أية علاقة؟،نشر بتاريخ 2014/09/20 على الساعة 4:28(تاريخ الإطلاع 2017/09/08 على الساعة22:00)متوفر على: http://www.dades-infos.com/?p=16971

3- جمال ضو ،"التشوه و الشذوذ اللغوي في الجزائر"،نشر بتاريخ 2012/10/06(تاريخ الاطلاع 2016/12/17،على الساعة23:00) متوفر على:http://www.lequotidienalgerie.org